

التعددية الدينية أصولها وأبعادها

د. فريد قطاط

المعهد الأعلى لأصول الدين
جامعة الزيتونة (تونس)

من حلّ بيتنا فقدّموا له طعاما
ولا تسألوا عن دينه
إذ من كان جديرا بأن يهبه الباري تعالى روحا
فهو خليق بأن يأكل على مائدة أبي الحسن

نص منقوش على باب خانقاه

الشيخ أبي الحسن الخرقاني^(*)
(351 هـ - 425 هـ)

(*) هرکه دراین سرا درآید

نانش دهید وازایمانش میرسید

جه آن کس که به درگاه باری تعالی به جان ارزد

البتة برخوان بو الحسن به نان ارزد

مق کتیبه سردر خانقاه شیخ ابو الحسن خرقانی

نقلا عن کتاب : مجموعه راهنمای جامع ایرانگردی (3) استان اردبیل - تألیف حسن

زنده دل ودستیاران - نشر ایرانگردان - تهران - 1377 هجری شمسی. والترجمة

اعلاه بقلم صاحب المقال.

فما الوجه إلا واحد غير أنه
إذا أنت عدّدت المرايا تعدّداً (**)

أسباب اهتمام مراكز البحث في العالم بدراسة الظاهرة الدينية :

يبدو لي أن اهتمام المعهد الأعلى لأصول الدين بتنظيم ملتقيات سنوية على الصعيدين الوطني والدولي، لدراسة التحوّلات المتسارعة التي تتمحور حول الظاهرة الدينية في تجلياتها المختلفة، يتنزّل في سياق عالمي جدّي، يتطلّع إلى رصد علاقة الإنسان المعاصر بالمؤثرات الدينية في أواخر القرن العشرين وبداية القرن الجديد.

ويبرهن هذا الحضور الدولي في الواقع على جدية التوجّه لهذه المؤسسة الجامعية التونسية العريقة في اختياراتها المتميزة بالدقة والعمق، من أجل إحلال الحوار والتفاهم، والتقارب والتعايش السلمي، بين الشعوب والأمم، والأديان والمذاهب، والثقافات والحضارات، مكانة تعيد إلى الإنسان الثقة في مستقبل يقوم على توازن حقيقي بين احتياجات الروح والجسد، ومتطلبات التطوّر المادي والأمن المعنوي، بعدما كاد سوء الفهم والتقدير، يلغي كل الضوابط والحدود، بتوجيه من غرور بعض الأنساق الفكرية والمدارس الفلسفية التي غامرت بالمراهنة على فقدان الدين لكل مبررات وجوده في المجتمعات الحديثة، وأن الإنسان الإله قادر على الإجابة عن كل الأسئلة التي تضمن استمراراً للحياة، بفضل التقدم العلمي الذي لم يترك ميداناً إلا حطّم أسوار أسرارهِ، لا فرق في ذلك بين ما تعود طبيعته إلى التفسيرات المادية، أو ما له صلة بالجانب الغيبي من حياة الإنسان.

(**) شرح فصوص الحكم - محمد داود القيصري الرومي - تحقيق السيد جلال الدين آشتياني - ص 526 - انتشارات علمی وفرهنگی - ط 1 - 1375 هجري شمسي - تهران.

ولست أشك في أن النظريات الفكرية والفلسفية التي راهنت على إقصاء الدين عن دائرة التأثير والتوجيه هي التي أصبحت جزءا من التاريخ، فصارت مجرد نظريات يقوم الباحثون بدراساتها في دائرة تقويم ما لها وما عليها من إيجابيات وسلبيات، باعتبارها مرحلة من مراحل الفكر البشري التي انقضت بمضي مبررات وجودها الفعلي.

وأما الدين، فهو حاضر، دائم الحضور، يؤثر ويوجه، بل هو من أشد المؤثرات التي تحرك الإنسان في بداية هذا القرن الواحد والعشرين، ودليل ذلك اهتمام كل الدوائر العالمية برصد التحولات التي تطرأ على علاقة البشر بالمؤثرات الروحية والمعنوية التي تستشف من النصوص الدينية..

ذلك أن المفارقة التي يعيشها العالم اليوم، هي خضوع نسبة كبيرة من الناس إلى أنماط من الحياة ترتكز على الأوامر والنواهي التي تستقي تبريراتها من مصادر دينية، مقابل نشاط متزايد لجهات تعمل ليل نهار على إشاعة الإلحاد ونشر الإباحية والهجوم على القواعد والرموز الدينية.

ولابد من الإشارة في هذا الخضم إلى أن الدين في هذا العصر أصبح سلاحا ذا حدين أكثر من أي وقت آخر، إذ أنه كما يمكن أن يضمن للإنسانية طمأنينة وسلاما، وأمنا واستقرارا، فإنه يمكن أن يستغل من قبل التنظيمات الأصولية، يهودية كانت أم نصرانية أم إسلامية، ليكون ذريعة إلى تأجيج نوازع الصراع والصدام، والتشاجر والتناحر، بين أفراد النوع البشري، مما جعل الدين ظاهرة تحتاج إلى عناية مركزة من لدن مؤسسات البحث العلمي في كافة أنحاء العالم من أجل إيجاد أرضية مشتركة يجتمع العلماء والمفكرون على صعيدها ابتغاء توفير آليات

صحيحة تمنع اللادينيّين من تحقيق أهدافهم، كما تحول دون جنوح المتعصّبين إلى استغلال الدّين خدمة لأهداف ضيقة تدعو في أكثر الأحيان إلى التدمير لا إلى التعمير.

وفي هذا الإطار يندرج الوعي المشترك بضرورة التعاون شرقا وغربا لتفادي تكرار ما وقع في التاريخ من حروب دينيّة، طيلة عشرات القرون، كان الدّين العامل المباشر في تغذيتها بمبرّرات الاستمرار، وذلك بسبب الفهم الخاطئ والتأويل العليل للمقاصد الدّينية التي تميّز بطابع الرحمة والهداية، لكن ضيق الأفق، وتسابق الإنسان إلى الفتك بالإنسان، تحت ذرائع دينيّة، جعل العديد من مراكز البحث العلميّ في العصر الحديث تفكر في صياغة نظريات تسعى إلى تجاوز الأخطاء السابقة، فتعالت الأصوات المؤمنة بإمكان إقامة حوار بين الأديان بقصد محاولة الاتفاق على قواعد مشتركة تكون أساسا للتعاون والتفاهم حتّى يستمرّ الدّين في أداء وظيفته الرّئيسية المتمثلة في الهداية ونشر قيم التراحم والتكافل، بعيدا عن التوظيف السيّء.

الظروف التاريخية لظهور نظرية التعددية الدّينية :

وفي محاولة لتجاوز الصراعات التي حوّلت العالم في الماضي إلى ساحة صراع مستمرّ كان آخرها الحربين العالميتين الأولى والثانية، تضافرت جهود المفكرين والفلاسفة ورجال الدّين وعلمائه، بحثا عن السبل الكفيلة بإقرار علاقات سليمة وسلميّة يعود نفعها على المجتمعات البشرية بلا فرق.

وفي هذا الإطار كان ظهور نظرية التعددية الدّينية في آخر القرن التاسع عشر من وحي بذور التعددية التي كانت تتفاعل في حقل المعارف

المختلفة على امتداد التاريخ، ودليل ذلك كثرة المصطلحات التي درج المختصون على وصفها بالتعددية مثل :

- التعددية الفلسفية Philosophical pluralism

- التعددية الأخلاقية Ethical pluralism

- التعددية الثقافية Cultural pluralism

- التعددية السياسية Political pluralism

- التعددية الحزبية

- التعددية الاجتماعية

- التعددية الفنية

- التعددية الدينية أو الكلامية Religious or theological pluralism

والتعددية كما عرّفها لالاند في موسوعته الفلسفية هي : التنوعية ومذهب الكثرة.. وهي عند وولف وكانط مصطلح يقابل مصطلح الأنانية.. وهي أيضا مذهب يرى أن الكائنات التي تكون العالم هي كائنات متنوعة فردية مستقلة، ولا يجوز اعتبارها كأنها مجرد نماذج أو ظواهر لحقيقة واحدة ومطلقة ...

وعبر منير البعلبكي في موسوعته الفلسفية عن معنى قريب من التعريف السابق إذ اعتبر أن التعددية نظرية تقول بوجود عدة حقائق مطلقة، وهي لأجل هذا خلاف الأحادية.

ولكن يجدر بنا قبل التطرق إلى الأبعاد المختلفة للتعددية الدينية، الإلماع إلى وجود نظريتين يعتبرهما الباحثون من الدّ أعداء فكرة التعددية، وهاتان النظريتان هما :

أولا - الانحصارية الدينية :

وهي النظرية التي هيمنت طيلة الألفيتين الماضيتين بين أتباع كل الديانات التي ترى أنّ الحقيقة الدينية والخلاص والتّجاة وتحقيق السّعادة

في الدنيا والآخرة لا يمكن تحقّقه إلّا باتّباع دين واحد، يدلّ عليه عند المسلمين مثلاً الآية رقم 85 من سورة آل عمران : «ومن يَبْتَغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»، بينما كانت تذهب الكنيسة سابقاً إلى رفع شعار «لا صلاح خارج الكنيسة، .. وفي هذا الاتّجاه يورد دوغلاس جيفت وغاربي فيليبس في مقالهما : الانحصارية الدينيّة / مقارنة برهانيّة في نقد التعدّدية، أدلة متعدّدة تفيد الاعتقاد بالانحصارية الدينيّة من بينها أنّ الرّسائل الأولى إلى أهل تسالونيكا 9 : 9 تعتبر الأديان الأخرى تعبيراً خالياً من حقيقة الخلاص والواقعيّة، وأنّ أهل الأديان الأخرى لا يعاملون على أساس أنّهم أقلّ شأنًا فحسب، بل ببساطة يعاملون كمخطئين، وكمعرّفين بشكل خطير على أنّهم حقل ظلام، لأنّه يوجد فقط «أهل واحد .. سيّد واحد .. إيمان واحد .. معموديّة واحدة .. إله واحد .. وأب واحد للجميع، (الرّسالة إلى أهل أفسس 4 : 4 - 6).

ثانياً - الشموليّة الدينيّة أو المذهب الشموليّ :

وينقسم أتباع هذه النّظريّة إلى فريق يرى أنّ مآل جميع الأديان إلى مرجع ومصدر واحد، باعتبار أنّ الدّين واحد في جوهره، وأمّا مظاهره الخارجيّة فمتعدّدة، وهي ما يعبر عنه بالشرائع، ويدلّ على ذلك مثلاً أنّ لفظ الدّين ورد في القرآن الكريم اثنين وتسعين مرّة بصيغة المفرد بينما لم يرد مرّة واحدة بصيغة الجمع.

وأما الفريق الثاني، فيرى أنّ أتباع الأديان الأخرى، ولئن لم يحالفهم الحظّ في الوصول إلى الحقيقة لأن الحقّ منحصر في دين واحد لا أكثر، فإنّ هؤلاء يمكن أن ينعموا بالنّجاة في الآخرة إذا ما كانوا صادقين في عبادتهم على رغم كونها مخالفة للدّين الحقّ.

وقد تضمّن هذا المعنى الإعلان الذي أصدره الفاتيكان سنة 1964 بإمكان خلاص المخلصين من أتباع الديانات من غير المسيحيين ..

ولعلّ الفاتيكان بإعلانه هذا الموقف الإيجابي جداً قد ابتعد عن نظرية الانحصارية الدينية، وخطا خطوة بناءة في اتجاه الإقرار بنوع من التعددية الدينية، دون أن ينخرط فيها صراحة ..

وقبل التعرّض إلى توضيح أصول التعددية الدينية، تجدر الإشارة إلى أن هذه النظرية تبلورت بشكل كبير في الأوساط المسيحية بسبب ظروف دينية وعالمية تسببت في تجديد أفق البحث في مستوى اللاهوت المسيحي، ويعتبر كارل رانر Karl Rahner (1904/1984) المتكلم الكاثوليكي، أحد أبرز دعاة هذه النظرية وأنصارها، لكنّ الجهد في توضيح أصول هذه النظرية والإيمان بكونها ضرورة دينية عالمية يعود بالأساس إلى جان هارود هيك John Hick (المولود سنة 1922) الذي بدأ حياته مسيحياً بروتستانياً متشدداً، ثم لم يلبث أن تطوّر تفكيره حتى أصبح من أكبر دعاة التعددية في العالم المسيحي، وقد كرّس إنتاجه العلميّ الغزير لخدمة مجال الفكر التعددي، ويمكن أن نذكر على سبيل المثال مقالته بعنوان : التعددية الدينية، قراءة مسيحية، وكذلك الكتب التي ألّفها في هذا الغرض وهي كتاب فلسفة الدين، وكتاب تفسير الدين، وكتاب مشاكل التعددية الدينية،⁽¹⁾ وغيرها.

ثم انتقلت عدوى الفكر التعددي في المجال الدينيّ، من ساحة التفكير المسيحيّ إلى العالم الإسلامي عن طريق عديد من المفكرين الإيرانيين الذين تحمّسوا لهذه النظرية بقوة، ويمكن أن نذكر على رأس هؤلاء

(1) John Hick. Problems of Religious Pluralism, London: Macmillan, 1985.

John Hick. Philosophy of Religion, New Jersey : Prentice - Hall, 1973.

John Hick , God Has Many Names. Philadelphia : Westminster Press, 1982.

الدكتور عبد الكريم سَروش (المولود سنة 1945) المفكر المثير للجدل دينياً وسياسياً، ومحمد مجتهد شبستري ومحمد تقى مصباح اليزدي، وغير هؤلاء.

وعن طريق الساحة الإيرانية بدأ التفكير التعدديّ ينتقل إلى الساحة الفكرية في العالم العربي، وفي لبنان تحديداً، وذلك بواسطة ترجمة أبرز مؤلفات جان هيك إلى العربية، وترجمة ردود بعض المخالفين من المسيحيين لنظرية التعددية الدينية، وكذلك ترجمة المؤلفات التي كتبت بالفارسية عن التعددية ونقدها، فبدأ اهتمام الساحة العربية بهذه النظرية تقويماً ونقداً بفعل حركة الترجمة، هذا دون أن نغفل الإشارة إلى أن الإنتاج العلميّ الغزير للدكتور محمد أركون، هو في كثير من أبعاده فكر تعددي، وفقاً لما يذهب إليه كثير من الدارسين.

أصول التعددية الدينية :

للتعددية الدينية أصول كثيرة أورد الدكتور عبد الكريم سَروش عشرة منها في كتابه «الصراطات المستقيمة»⁽²⁾، وما هذه الأصول في الحقيقة سوى امتداد واستئناف برؤية جديدة لما سبق أن قام بتأصيله لاهوتيون مسيحيون يؤمنون بالتعددية في أبعادها الفلسفية والثقافية والدينية والاجتماعية، وعلى رأس هؤلاء جميعاً جان هيك.

(2) راجع مقال : نقد التعددية : الدين والصراط المستقيم - تأليف علي رضا قائمي نيا - عربيه عن الفارسية حيدر حبّ الله وصدر بمجلة المحجة اللبنانية ص 116 - العدد 3 - نيسان 2002 - محرّم 1423 - وهي مجلة فصلية متخصصة تعني بشؤون الفكر الديني والفلسفة الإسلامية المعاصرة، وتصدر عن معهد الدراسات الإسلامية، المعارف الحكيمة بالتعاون مع دار الهادي.

وهذا المقال نقد على مقالة «الطرق المستقيمة، التي كتبها عبد الكريم سَروش في مجلة «كيان» الإيرانية العدد 36.

الأصل الأول - التنوع في فهم النصوص الدينية أو ما يمكن أن يعبر عنه أيضا بالتعددية التفسيرية للدين ،

وفي هذا السياق يقول الدكتور سُروش : سعتُ في نظرية القبض والبسط لتوضيح سرّ التعدّد الديني على صعيد الفهم والاستنتاج، كما قمت بتوضيح الجهاز الميكانيزمي له، ومجمل الكلام حول القبض والبسط هو أن فهمنا للنصوص الدينية فهم متنوع بالضرورة، وذلك دون أن يكون لهذا التنوع قابلية الصيرورة لفهم واحد، بل ليس هذا الفهم متنوعاً ومتعدداً فحسب، وإنما هو سيّال أيضاً.. وإن التفسير - أي تفسير - غير ممكن دون الاعتماد على المصادر القبلية والاستفهامات المسبقة التي تغد إلينا من خارج الدين وحيث إن الفضاء المعرفي الخارج عن الدائرة الدينية فضاء سيّال، فإنه وفقاً لكلّ ذلك ستكون التفسيرات والاستنتاجات الخاضعة في مرحلة إنجازها لأطر هذه الاستنتاجات والفرضيات القبلية، هي الأخرى في حالة تحوّل وتنوع أيضاً.. وهذا معناه أن المعرفة الدينية ليست سوى هذه التفسيرات الصحيحة وغير الصحيحة .. إننا غارقون في بحر عميق من التفسيرات والاستنتاجات ... وإذن فليس هناك أي مرجع ومفسّر رسميّ له، والمعرفة الدينية - كأي معرفة بشرية - ليس فيها قول حجة تعبدًا لشخص ما على شخص آخر، كما أنّه ليس هناك فهم مقدّس ومتعال عن المسألة، وهذا الكلام كما هو صادق في علم الكيمياء صادق أيضاً بلا أي زيادة أو نقيصة في الفقه والتفسير أيضاً.

والحاصل من مدّعى تعددية فهم النص الديني، هو أن كل فهم يعدّ فهماً رسمياً معترفاً به، وهو لذا قادر على الإيصال إلى النجاة البشرية، فالتعددية بهذا المعنى تعني الاعتراف بأي دين، وتمثل اعتقاداً بأن كافة الأديان تستطيع تأمين سعادة البشر.

ويمكن الاعتماد على المثال الذي أورده الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي بالاعتماد على شكل المخروط الزجاجي⁽³⁾، لمزيد توضيح هذا الأصل، يقول : لقد ذكرنا أن هذه النظرية يمكن أن تكون مبنية للتعديدية الدينية، لأنه بناء على هذا التفسير للعلم، ستكون كل نظرية علمية، سطح وزاوية من المخروط الزجاجي حيث يكشف لنا هذا السطح، عن قسم من الواقع، ولا يكشف كل الواقع، لأنها مقسمة على جميع سطوح المخروط وزواياه المختلفة .. وإذا فسرنا التعديدية على هذا النحو، أمكن لنا القول إن الحقيقة واحدة، وهي : المخروط له سطوح مختلفة، ولكنها تظهر لكل شخص على شكل خاص بحسب الزاوية التي ينظر من خلالها إلى المخروط .. وتكون كل نظرية علمية بمثابة سطح من المخروط، والنتيجة هي عدم إمكان الإحاطة بكل الحقيقة.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار هذا التشبيه بالمخروط، وأردنا أن نستفيد منه في توضيح التعديدية وتفسيراتها المختلفة، لقلنا إن هذا التفسير الأول، وهو أن الحقيقة واحدة، ولكن طرق الوصول إليها مختلفة، تماما مثل المخروط الزجاجي، فليس هو إلا شيء واحد، ولكن بما أن الناظر إليه ينظر من إحدى الجهات، فمن الممكن أن يرى صورة عن المخروط غير الصورة التي يراها ناظر آخر من جهة ثانية، لأن سطوح هذا المخروط كل منها له لونه الخاص مثلا، وكذلك مميزاتة الخاصة، فلو تصورنا مخروطا زجاجيا، ولكن إحدى سطوحه بشكل محدب، والسطح الثاني مقعر، والثالث مصقول، وأوقفنا ثلاثة أشخاص كل واحد منهم مقابل سطح من السطوح، وجعلناهم ينظرون إلى شيء واحد من خلال هذا المخروط، فسوف يحصل كل شخص على صورة عن ذلك الشيء، مع أننا - بصفتنا ناظرين من الخارج إلى هذه المسألة - ، نعلم أنهم قد حصلوا على صور

(3) المخروط : هو شكل يبتدى من سطح مستدير ويرتفع مستدقا حتى ينتهي إلى نقطة.

مختلفة بسبب اختلاف زاوية نظرهم ومحلّ وقوفهم، وأمّا ذلك الشيء، فهو واحد لا غير .. وهذه هي التعددية بالتفسير القائل بأنّه هناك حقيقة واحدة، وتوجد طرق مختلفة توصل كلّها إليها .. فمطلوب ومعبود جميع الأديان، بل جميع البشر، ليس إلّا شيئاً واحداً، وكلّهم يسعون في طلب هذه الحقيقة الواحدة، ولكنّ أحدهم قد سلك طريق المسيحية وآخر طريق اليهودية وثالثاً سلك طريق الإسلام، وبالنهاية سوف يلتقي جميعهم في مقصد وهدف واحد، علماً أنّ كلّها سبل مستقيمة.

والتفسير الثاني للتعددية بأن نقول : إنّ الحقيقة ليست واحدة، بل هي بعدد سطوح هذا المخروط، فالحقيقة لكلّ شخص، هي تلك التي ينظر إليها من زاويته، واختلاف ألوان المخروط وسطوحه، يؤدي إلى أن يرى شخص الحقيقة بلون أحمر ومحدبة، والثاني يراها بلون أخضر ومقعرة، والثالث بلون أصفر ومصقولة، والحقيقة ليست إلّا هذه الصور المختلفة بالبداية، إذن، فاختلاف الحقيقة في الواقع هو نتيجة اختلاف الصور .. ومن الواضح أنّ هذا التفسير للتعددية يختلف عن التفسير السابق القائل بأنّ الحقيقة واحدة، ولكنّ الطرق المستقيمة إليها مختلفة..

وأمّا التفسير الثالث للتعددية، فإن ننظر إلى مجموع قضايا الدين أو العلم دفعة واحدة، ونحكم عليه، لا أن ننظر إلى كلّ قضية منه على حدة، فعلى سبيل المثال، إذا أردنا معرفة هل أنّ المذهب الشيعي على حقّ وصواب أو أنّه على باطل، علينا أن نلاحظ مجموع الاعتقادات الشيعية ونحكم عليها، وعلى أساس هذا التفسير للتعددية لا يمكن لنا الحكم بصحة ولا بطلان أيّ واحد من الأديان والمذاهب، لأنّ كلّ الأديان تعتمد على قضايا حقّة وصحيحة، كما أنّها تشمل على قضايا باطلة، وبعبارة ثانية إنّ جميع الأديان صحيحة وفاسدة، فصحيحة باعتبار بعض محتواها، وفاسدة

باعتبار بعض محتوى آخر، وبما أن كلّ دين أو مذهب مؤلف من مجموعة من الاعتقادات والأفكار والأحكام والقيم الصحيحة والفسادة، الحقّة والباطلة، فلا يمكن لنا الحكم ببطلان أحدها، بل كلّها متساوية من الناحية القيمة، ولا فرق في أن تتمسك بأيّ واحد منها⁽⁴⁾.

الاصل الثاني - تعدّد التجارب الدنيّة وتنوّعها :

تعني التجربة الدنيّة المواجهة مع الأمر المطلق والمتعالّي Transcendence، وهذه المواجهة تتمظهر في صور مختلفة، فقد تبدو أحيانا بصورة الرؤيا، أو بسماع النداء، أو برؤية الشكل واللّون، أو بالاحساس بعظمة مطلقة لا متناهية، أو بالفيز والظلمة، أو بالبسط والتورانية .. وقد تبدو أحيانا أخرى كعشق لمعشوق غير مرئي، أو إحساس بحضور روحانيّ لشخص ما، أو اتحاد مع شخص أو شيء، أو نوع من نزع وخلع الذات والتجرّد عنها، والبقاء معلقا في الفراغ .. إنّها أحيانا إدراك للشر، وأخرى كشف للرّمز، أحيانا حزن وإحباط من التعلّقات الفانية، وتحليق للقلب نحو البقاء والخلود، وأخرى تظهر عن طريق تجلّي جذبة، أو عطش، أو فراغ، أو نور، أو جمال أو بهجة ... هذه التجربة غير المتعارفة والتي تبلغ أحيانا قدرا من التأثير العميق، والتفوذ الكبير في القلب والإحساس، يؤدّيان إلى زوال اليقين، وحلول البهجة والنور، بحيث لا يظهر من الإنسان غير الانكسار قبالتها.

وبناء على هذا، فإنّ سرّ اختلاف الأديان، لا يكمن فقط في التغيرات الموجودة بين الظروف الاجتماعيّة، أو في تحريف الدّين نفسه،

(4) محمد تقي مصباح اليزدي - التعددية الدنيّة - مجلّة الثقلين - تصدر عن المجمع العالمي لأهل البيت - العدد 41 - السنة 11 - محرّم الحرام / ربيع الأول - 1423 هـ - 2002 م صص 111 - 152 - إيران.

أو مجيء ديانة أخرى مكان الديانة الأولى، بل إن هناك التجليات المتنوعة للخالق تعالى في العالم، فكما هو الحال في الطبيعة حيث خلقها متنوعة، كذلك الشريعة هي الأخرى متنوعة منه تعالى .. إن أول واضح لبذور التعددية في العالم هو الله تعالى، وذلك حين أرسل أنبياء متعددين، فتجلى على كل واحد منهم، وبعثه إلى مجتمع معين، كما وجعل في ذهن وعلى لسان كل منهم تفسيراً، ومن هذا اكتسبت التعددية حرارتها.

فالاديان لعلها ظهورات، أشكال، صور وتجليات لله الواحد، لعلها أنحاء وطرق مختلفة، وفي مقامات ومواقع متعددة.. بل إنه يصل إلى القول «بأن يهوه والله وإله السماء المسيحي الذي يملك كل واحد منهم شخصية الوهية وتاريخية، هم في الحقيقة الحصلة المشتركة للظهور الكلي للشخصية الألوهية الكلية، إلى جانب تدخل القوة التخيلية للإنسان في الظروف التاريخية، .. فربما كانت ذكورية الله في خيال أتباع الأديان التوحيدية أمراً غير بعيد عن الظروف الرأعوية التي كانت موجودة لدى الأقوام البدوية المختلفة، وفي المقابل فإن أنوثة آلهة الهند ما قبل الآرية تدل على تدخل الظروف الاجتماعية / الاقتصادية التي كانت تحيط بهم.

الأصل الثالث - تراكم الحقائق والخيرة الحاصلة في مقابل الاختيار :

يرى الدكتور سروش أن تراكم الحقائق وتداخلها، والخيرة الحاصلة في مقام الاختيار والانتخاب، هو سبب التنوع الأصيل غير القابل للتجنب.. وهذه النقطة جديرة بالتركيز، إذ لا بد من استبدال الصورة والزاوية، فبدلاً من رؤية العالم كله خطأ مستقيماً واحداً ومئات الخطوط المتلوية والخطائنة، لابد من رؤيته مجموعة من الخطوط الصحيحة والسليمة ذات التقاطعات والتوازيات والتطابقات فيما بينها.. بل كل واحد منها

يتمتع بخصوصية لا تقبل المقايسة مع غيره، تماماً كالأجوبة الكثيرة والصحيحة غير القابلة للإدغام بسؤال واحد، فالتجارب كالأنواع والطبائع - كثيرة واقعا - أي أن بينها تباينا ذاتيا، وهكذا الحال في تفاسير النصوص وغيرها.

الأصل الرابع -

إنّ الكثرات التي تبدو متباعدة إنما هي في الحقيقة متقاربة، وكافة الباحثين يبحثون عن أمر واحد وينادون شخصا واحدا، وهذا معناه ضرورة التركيز على صدق الطالب، ونجاة النهائية قبل التأكيد على الصدق المطلق للتعاليم التي يراها، والحديث عن الهادي، أو الهداة غير المرئيين وغير المعروفين قبل الحديث عن الهادي الجليّ والمرئيّ، وكأنّ كافة السالكين وعامة المتدينين هم أتباع طريقة واحدة يأخذون بأجمعهم المدد من مركز واحد يمنحهم العون، لكنهم يضعون لأنفسهم وطرقهم أسماء متعددة ومتنوعة، ويختلفون فيما بينهم بتوهم وجود الخلاف، ويتعادون بسبب ذلك.

الأصل الخامس - التمسك باسم الهادي :

بمعنى أنّه إذا لم نوافق على التعددية، فإنّ اسم الهادي، والهداية الإلهية، لن يكون متجليّا، وكيد الشيطان سيصبح قويا فيما ستضيق دائرة الرّحمة الواسعة. ويرى الدكتور سروش في هذا الإطار أنّ ما يخدع الفكر هنا عناوين من قبيل الكافر والمؤمن، وهي عناوين محض فقهية دنيوية (وهكذا نظائر هذه التعابير الموجودة في جميع الشرائع والمسالك) تقوم بإغفالننا عن رؤية الباطن .. وليس الكلام هنا دعوة إلى أن يتخلّى أتباع الديانات المختلفة عن الأعمال والآداب والعقائد الخاصة التي يرونها ليحصل الانسجام والتناغم والتشابه بين الجميع، وإنّما القصد هو الدّعوة إلى

ضرورة النظر بعين أخرى إلى الكثرة والاختلاف في العقائد والسلوك، وعدم حصر جوهر الهداية في التعاليم الكلامية والفقهية المحض، وعدم توهم أن أي شخص يحمل مجموعة من المعتقدات الخاصة في ذهنه (السنة أو الشيعة، البروتستانت أو الكاثوليك، أو ...) هو المهدي والناجي، فيما البقية ضالّون هالكون، فعلينا قراءة العمل والطلب والمعاونة ببعد نظر، و ألا نرى بأوهامنا أن الله تعالى هو المغلوب أمام الشيطان، بل المفروض مطالعة طرق الحق المستنيرة في هداية الخلق.

الأصل السادس -

عدم خالصية أمور العالم، وقد أوضح الدكتور سُروش هذا الأصل بقوله : ليس الكلام هنا في أصل الأديان، والذي هو عين الحق، وإنما هو في فهم البشر، وفي المذاهب الدينية المختلفة، والمختلطة دائما بالحق والباطل .. نعم لو كانت هناك فرقة من هذه الفرق الدينية حقا خالصة، والبقية كلها باطلة .. وما ذلك إلا لأن كل عقيدة مخلوطة بالجمال والإحكام، والصدق والحق، الأمر الذي يجعل عذر القبايح والبطلان محتملا، فيما يغطّي بطلان عقيدة الآخر واعوجاجها على جمالها وكمالها، فليس ثمة عرق خالص في هذا العالم، ولا لغة خالصة، ولا دين صاف.

فلا التشيع هو الإسلام الخالص والحق المحض، ولا التسنن، وذلك بالرغم من أن أتباع كل طائفة من هاتين الطائفتين يرون أنفسهم على الحق، ولديهم قناعة بمثل هذا الرأي .. ولا الأشعرية هي الحق المطلق ولا الاعتزال، بل لقد ملأت الدنيا الهويات غير الخالصة، فلم يتربّع الحق في جهة من الجهات دون الجهة الأخرى لتكون باطلا محضا، وليس الخلل في فهم الدين فقط، بل في نفس الدين أيضا، فقد حصل الجعل، والوضع الكثير جدا، باسم النبي والأئمة، مما صعب الأمر على العلماء، لتمييز

الصحيح من السقيم، فما وصل إلينا من السنة ليس كاملاً، فما أكثر الروايات التي تلاشت ولم تصل إلى أيدينا، وما أكثر الأحاديث المجهولة التي بقيت، وما أكثر الأسئلة التي كان يمكن لو طرحت أن تنير أمامنا الطريق، لكنها لم تطرح مع العظماء من الرواد والقادة .. إن كل ذلك يرشدنا إلى المدى الذي يدخل فيه الدين حيز التاريخ والبشرية عندما يلج المرحلة التاريخية .. ومن ثم كيف يخضع للتصرفات الذهنية والعملية للبشر، وكم تلصق به الكثير من الأغيرة والحجب، وكم تقطع منه العديد من القطع أو تضاف إليه ؟.

الأصل السابع -

وهو عبارة عن علية أكثر المتدينين لا دليّة هذا التدين ... يقول الدكتور سُرُوش في هذا الصدد : إن تدين أكثرية المتدينين ناشئ عن علة لا عن دليل، بل إن إيمانهم في الأغلب، إيمان موروث وتقليديّ، وهذا الحكم يستوي فيه الزرادشتيون والمسلمون واليهود وغيرهم .. وليس العوام فقط، بل إن عامة علماء الدين هم أيضاً منتفعون منه، وهم يقومون بدراسة وتعليم الأمور التي يرضى عنها المحيط والجوّ العام، ويسمّون ذلك علم الدين، إنهم في الحقيقة مقلّدون، إن المحقّقين الذين يتحرّون من التحسين والتقييح والتقليد، ومن الاستفادة والتمتع عن طريق الدين هم قلة، بل نادرون، وقلة أيضاً أولئك الذين لا يعتنون بالتقاليد والعادات الفكرية والعلمية للمكان والزمان الذي يعيشون فيه، بل يتواضعون وينقادون للفكر عن حرية حقيقية كما تتطلبه الحكمة .. أما الأفراد العاديون الذين يمثلون الطبقة الوسطى في المجتمع، فالكثير منهم أسرى العلل، لا الأدلة والمبررات العلمية... فأغلبهم محكوم بالجبر أكثر من الاختيار، فهم إذن معذورون لا مسؤولون، إذ لديهم اليقين جزم راسخ قبل أن يكون لديهم اليقين، وتغلب عليهم الحرب والصراعات أكثر من الصلح والمدايرة.

إن التواضع والرحمة والمشاركة في المعاناة أفضل لنا من التكبر والعداوة والعنف، فبماذا يدّعي الأسير الأميريّة ؟ ليس هناك حرب أكثر خيالية وإذهاباً للعقل من حرب الأسرى الذين يظنون أنفسهم أمراء.

الأبعاد الإيجابية للتعددية الدينية :

للتعددية الدينية أبعاد إيجابية كثيرة، كما أن لها بعض التداعيات السلبية التي لا يسمح المجال بتفصيلها الآن ...

ويمكن إجمال الأبعاد العامة للتعددية الدينية، في بعدين أساسيين هما :

البعد الأول - البعد الاجتماعي :

ويشيع هذا البعد قضايا من قبيل حق إبداء الرأي، والحرية الإعلامية والعقيدية والسياسية والاقتصادية، كما يقوّي التمسك بمبادئ حق الاختلاف ومبدأ المنافسة الحرة، ومبدأ الحوار، واحترام الآخر والاعتراف به، ومبدأ حق النقد وتقبله، ومبدأ التعايش السلمي، وغير ذلك من المفاهيم التي تعمل على إشاعة روح الحرية.

البعد الثاني - البعد المعرفي :

ويمثل هذا البعد البنية النظرية والفلسفية للبعد الأول، وفي هذا الإطار يمكن للإنسان أن ينسجم معرفياً مع بعض المبادئ التي وردت في البعد الاجتماعي حتى لو لم يكن مؤمناً بها، وهذا ما يلاحظ عند تحليل بعض مواقف الرافضين للتعددية، فإن الكثيرين منهم يوافقون على نسبة كبيرة من مبادئ الحرية والتعايش السلمي الديني، وحق الاختلاف، وما إلى ذلك...

ويرى بعض الدارسين أن التعددية الدينية عبارة عن آلية ناجعة لتحقيق الحرية الدينية للأفراد، وذلك بما تشيعه من روح التساهل، وهي بهذا

تدعم الاتجاه السائد بين الأديان الوحيانية الكبرى اليوم أو الديانات غير الوحيانية أيضا كالبودية والهندوسية في الدعوة إلى الحوار والاتفاق، بعيدا عن نزعات الدغمائية والتعصب والنرجسية والادعاء المسبق باحتكار الحقيقة.

التعددية الدينية في المصادر الإسلامية :

وقد وردت في المصادر الإسلامية كثير من التصريحات التي تنسجم انسجاما كبيرا مع نظرية التعددية الدينية بشكل يجعلنا ننظر إلى هذه القضية بكثير من الجدّة والمسؤولية، ويمكن أن نسوق مثالين اثنين على التوجه التعددي في الفكر الإسلامي، وذلك على سبيل المثال لا الحصر..

يقول الإمام الغزاليّ في كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحت فصل بعنوان «في بعث النار» : «وأنا أقول إنّ الرّحمة تشتمل كثيرا من الأمم السّالفة، وإن كان أكثرهم يعرضون على النار، إمّا عرضة خفيفة في لحظة أو ساعة، وإمّا في مدّة حتى يطلق عليهم اسم بعث النار، بل أقول : إنّ أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة إنّ شاء الله تعالى. أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك ولم تبلغهم الدعوة، فإنهم ثلاثة أصناف : صنف لم يبلغهم اسم محمد (صلى الله عليه وسلّم) أصلا فهم معذورون، وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات، وهم المجاورون لبلاد الإسلام والمخالطون لهم، وهم الكفار الملحدون. وصنف ثالث بين الدرجتين : بلغهم اسم محمد (صلى الله عليه وسلّم) ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا أيضا منذ الصبا أنّ كذابا ملتبسا اسمه محمد ادّعى النبوة، كما سمع صبياننا أنّ كذابا يقال له المقفع بعثه الله تحدّى بالنبوة كاذبا، فهؤلاء عندي في أوصافه في معنى الصنف الأوّل، فإنهم مع أنّهم لم يسمعوا اسمه

سمعوا ضدّ أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر في الطلب،⁽⁵⁾.

كما ورد في رسائل إخوان الصفاء / ج 3 ص 501، ما يلي :
«فاعلم أنّ الحقّ في كلّ دين موجود، وعلى كلّ لسان جائز ممكن، فاجتهد يا أخي أن تبين الحقّ لكلّ صاحب دين ومذهب، بما هو في يده أو بما هو متمسك به، وتكشف عنه الشبهة أنّي دخلت عليه، ولا تمسك بما أنت عليه ومذهبك،⁽⁶⁾».

وإذ نكتفي بإيراد هذين المثالين من التراث الإسلامي على سبيل المثال، نشير إلى أن الموضوع يمكن أن يفتح على آفاق أوسع لمن رام التتبع والاستقصاء في سياق زمني يسمح بالإحاطة بما لم تتمكن من الإشارة إليه ضمن هذه المداخلة.

(5) راجع مجموعة رسائل الإمام الغزالي - فيصل التفرقة - ص 252 - 253 - دار الفكر - ط 1 - 1416 هـ / 1996 م - لبنان -

(6) نقلا عن محمد حسن قد ر دان قراملكي : كندكاوي درسويه هاي بلوراليزم - ص 18 - طبع مؤسسة ثقافة المعرفة والفكر المعاصر - ط 2 - شتاء 1379 هجري شمسي - تهران.

